مجلة الرائد

العدد : ١٨٨ الموافق في ذو القعدة ١٤١٧ هجري ٤ / ١٩٩٧ ميلادي

نقاط مضيئة من حياة فقيد العربية : العلامة سعيد الأفغاني	بقلم : الأستاذ زهير الشاويش

انتقل إلى رحمة الله في العاشر من شوال سنة ١٤١٧هـ الموافق: ١٩٩٧/٢/١٨م ، عن ثلاث وثمانين سنة ، أستاذنا العلامة سعيد الأفغاني الدمشقي ، الكشميري الأصل ، بعد أن خدم لغة القرآن الكريم أكثر من ستين سنة.

وقد قال عنه أستاذنا الشيخ علي الطنطاوي :

« هو المرجع في قواعد العربية وعلومها ، والحجة في نحوها وصرفها... وما أعرف له في علم النحو نظيراً ، والباحث الذي انتهت إليه الصدارة في علوم العربية بالشام... »[١] .

ولما اتصلت بالشيخ علي معزياً قال لي :

« ... يا زهير لقد أحسست بوفاته ، وكأنني فقدت قلبي ، أو بعض قواي ، ولا أدري ما قيمة حياتي بعده » ثم غلبته العبرات.

وقال فيه أستاذنا الشيخ مصطفى الزرقا :

« أبادلكم التعزية بالأخوين العزيزين الفقيدين : الشيخ عبد الفتاح أبو غدة ، والأستاذ الراسخ في العلم سعيد الأفغاني ، سائلاً المولى تعالى لكم طول البقاء في خير ونعمة وبركة ولفقيدي العلم والإسلام الرحمة والغفران ، والنعيم المقيم في جواره الكريم ، وأن يعوض الأمة عنهما بمن يسد مسدّهما ، ويملأ الفراغ الذي تركاه بعدهما ، ولا حول ولا قوة إلا بالله ، وإن في الله خلفاً عند كل فائتة »[٢].

وأقول : كان سعيد الأفغاني الرجل النادر في خُلقه وأدبه ، عفّ اللسان ، المستقيم على الجادة في تعامله وحياته ، الصلب في عقيدته ومنهجه ، المتمسك بفهم السلف الصالح ، والملتزم بالدليل في عبادته وفقهه ، والآخذ بالأحوط فيما يشتبه من أموره. هكذا عرفته ، ولا أزكي على الله أحداً.

وقد شهدت له مناقشات مع كبار علماء بلدنا المقلدين ، وكان المدافع عن منهج الاتّباع.

كان أشهر مدرسي اللغة في الشام ، وعميد كلية الآداب في الجامعة السورية - يوم أن كانت المنهل الوحيد لطلاب اللغة في سورية ، والوافدين إليها من مختلف البلاد العربية - ومن أعضاء المجمع العلمي العربي. وبعد ذلك ذهب إلى المملكة العربية السعودية ، وليبيا ، والأردن ، حيث تتلمذ عليه الألوف. وجُلُّ من نعرف من أهل الأدب واللغة هم طلابه والمقرُّون بفضله.

وإن فاتتني الدراسة النظامية عليه ، فقد كنت تلميذاً له منذ سنة ١٣٦٣هـ = ١٩٤٥م ، في المجالس التي كان يعقدها شيخنا الطنطاوي ، ويحضر بعضها العلامة محمد بهجة البيطار ، والعالم عز الدين التنوخي ، وعبد القادر العاني ، وياسين عرفة ، وأنور العطار ، والمربي المتفنن حسني كنعان ، والشيخ صلاح الدين الزعيم ، وسعيد الحافظ ، والشاعر محمد الكنجي ، وغيرهم ، في المدرسة « الأمينية » عند الشيخ شريف الخطيب ، حيث تدور الأحاديث العلمية والأدبية الجادة ، في كل ما يهم الناس من مشكلات اجتماعية ، أو أخبار العالم الإسلامي.

فمن حضرها يخرج مشبعاً بمعلومات غزيرة ، قد لا يجدها الطالب في الجامعة ، ولا المنتسب إلى النوادي الثقافية ، وما يُلقى فيها من معلومات تفوق المحاضرات.

وفي جلسات خاصة في بعض منتزهات دمشق في بساتين شارع بغداد ، أو نهاية خط المهاجرين في سفح قاسيون ، قرب مصلى العيد.

أو في زيارته التي يتكرم بها علينا في المكتب الإسلامي ، أو في دارنا بالميدان ، حيث كان يسر مما يسمع من والدي من أحاديث البادية والجهاد.

وكم كانت لفقيدنا من نظرات غاية في الصواب ، في مختلف جوانب الحياة : سواء منها السياسية أو الاجتماعية أو التاريخية.

كما كان تقييمه للحوادث وصحة أخبارها متقنة محققة ، وأخباره عن رجال العلم والسياسة من أوسع ما سمعته عنهم وعن سيرهم ومنهجهم.

وكان يصحح للمؤرخ الصديق الأستاذ عمر بن خالد الحكيم ، ما يجد فيه توسعاً من أخبار ومعلومات. ويرد على الدكتور سعيد عودة ما يتطاول به على العلامة المجاهد الشيخ كامل القصاب ، ورجل فلسطين الأول الحاج أمين الحسيني[٣] .

وأحياناً كان يزودني بمعلومات عن هذه الموضوعات وغيرها ، أو يدلني على بعض مصادرها.

كان في العشرين من عمره - مع الطنطاوي - ينقد الشعراء والأدباء ، ويقارن بينهم ويعطي لكل واحد منزلته في اللغة والأدب.

في سنة ١٣٦٥هـ=١٩٤٧م ، ذهب والشيخ مصطفى الزرقا إلى مصر لنيل شهادة " الدكتوراة " (أو ما يقاربها) ، فوجدا أن من يعطي هذه الشهادات أقل علماً منهما ، ...فرجعا دون ذلك.

ويومها ما كانت هذه الشهادات تعطى إلا للعلماء ، وأما اليوم فتمنح لقليل من أهل العلم...

ولكثير من أهل الجهل. ومن عجائب ما نسمع التفاخر بهذا اللقب حتى ممن أخذها بالمراسلة !.

وطبعُه لرسالة السلطان عبد الحميد - رحمه الله - التي بين فيها أنه خُلع لمحافظته على فلسطين ، ونشرها في مجلة « العربي » العدد: ١٦٩ سنة ١٩٧٢م.

وكانت له - مع الطنطاوي - جلسات للتقريب بين أهل المذاهب ، بعضها مع الشيخ محمد تقي القمّي ، في دار التقريب بمصر. وكانت آراؤه عند أهل السنة وسطاً بين تساهل الشيخ شلتوت والشيخ محمد عرفة... وتشدد الشيخ محب الدين الخطيب.

وقد استفدت من رأيه فيما قلت وكتبت في هذا المجال ، وانظر كلمتي التي ألقيتها في طهران في « مؤتمر الوحدة الإسلامية ، والتقريب بين المذاهب » ، وبحمد الله لما اطلع على الكلمة لم ينتقد منها شيئاً ، وكذلك أستاذنا الطنطاوي[٤].

وآثار أستاذنا رحمه الله قليلة بالنسبة إلى علمه ، فإنها دالة على اقتصاره على ما ينفع ، ومنها : « في أصول النحو » و « أسواق العرب في الجاهلية والإسلام » و « ابن حزم الأندلسي ورسالته : المفاضلة بين الصحابة » و « الإسلام والمرأة » و « عائشة والسياسة » وغيرها.

ومما حققه : « الإجابة لإيراد ما استدركته عائشة على الصحابة » و « ترجمة السيدة عائشة في سير أعلام النبلاء » للإمام الذهبي ، و « ملخص إبطال القياس » للإمام ابن حزم ، وغيرها.

وما ألف الأستاذ سعيد من كتب - وإن لم تكن كثيرة - فإنها دالة على اقتصاره على ما ينفع... ومن ذلك كتابه القيم : « في أصول النحو » ، وتحقيقه لكتاب : « الإجابة لإيراد ما استدركته عائشة على الصحابة »[٥].

وفي مؤلفه القيم « في أصول النحو » ذكر في مقدمته بأن لعض اللحن كان معروفاً في أيام الرسول ﷺ ، وعُرف قليلاً في أيام الخليفة الأول سيدنا أبي بكر الصديق ، وفي عهد الخليفة الراشد عمر واستنكاره عدداً مما سمع من اللحن ، واتخاذه بعض القواعد السليمة لتفادي اللحن ، وأورد بعدها دخول أبي الأسود على الخليفة الراشد علي بن أبي طالب ، وأملى عليه : « إن الكلام كله لا يخرج عن اسم ، وفعل ، وحرف... » الخ.

وفي تقديمه لكتاب « الإجابة لإيراد ما استدركته عائشة على الصحابة » يقول:

« سلخت سنتين في دراسة السيدة عائشة ، كنت فيها حيال معجزة لا يجد القلم إلى وصفها سبيلاً ، وأخص ما يبهرك فيها : علم زاخر كالبحر... فما شئت إذ ذاك من تمكّن من فقه أو حديث أو

تفسير أو علم بشريعة أو آداب أو شعر أو أخبار أو أنساب أو مفاخرة أو طب أو تاريخ... الخ ، إلا وأنت واجد منه ما يروعك عند هذه السيدة ، ولن تقضي عجباً من اضطلاعها بكل أولئك ، وهي لا تتجاوز الثامنة عشرة »(انتهى).

ويكفي أن نطالع في كتابها هذا - رضي الله عنها - استدراكاً على والدها الصديق ، والعبقري عمر ، والبليغ عليّ ، ﷺ !

ومن أراد أن يعرف أخبار فقيدنا فعليه الرجوع إلى « ذكريات علي الطنطاوي » ، فقد دخل في أجزائها الثمانية مثل دخول الطنطاوي. فقد ترافقا منذ سنة ١٣٣٨هـ=١٩٢٠م ، عند الشيخ صالح التونسي ، ومجالس الشيخ محمد بدر الدين الحسني. واستمرت الصلة بينهما قوية متينة ، وتزوجا شقيقتين هما ابنتا القاضي صلاح الدين الخطيب ، وقد رزق الأفغاني بالأخت الأستاذة بشرى ، زوجة الأخ الدكتور فواز الفقير.

وعزاؤنا للأستاذ الطنطاوي ، والأخت بشرى ، وأسأل الله أن يعوض المسلمين خيراً. وإنا لله وإنا إليه راجعون.

الهوامش :

(١) جمعت من كلمات لأستاذنا علي الطنطاوي.

(٢) رسالة منه في ١٢ شوال ١٤١٧هـ = ١٩٩٧/٢/١٩م.

(٣) انظر « ذكريات علي الطنطاوي » ١١٣/٥.

(٤) ستصدر قريباً في كتاب عن مركز البيان الثقافي في بيروت.

(٥) وهما من مطبوعات المكتب الإسلامي في بيروت.